العبادة في مجتمع دهري

الميتروبوليت أنتوني (بلوم) مطران سوروج

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

العبادة، بحسبِ المفهومِ العام، هي فعاليةٌ ونشاطٌ دينيَّان بحتـان. ولكنْ، يمكن تعريفُ العبـادةِ بمعنـىً أوسعَ على أنهـا موقفُ الشَّـخصِ الـذي حـدَّدَ قِيَمـاً مُعَينـةً على أنهـا قِيَمٌ نهائيـة، ونظّمَ حياتَه حولَها، ليؤدِّيَها في فعـلٍ من الخشوعِ والوفاءِ بالواجباتِ المنوطةِ بها. إذنْ هنـاك مفهـومٌ للعبـادةِ أوسعُ من العبـادةِ الدينيـة. تبـدأ العبـادةُ في اللحظةِ التي نكتشفُ فيها، خارجَ أنفسِنا وأبعدَ وأعلى منها، قِيماً أكثرَ أهمِّيـةً لنـا من ذواتِنا. ليس لحيـاةِ الإنسـان أيُّ اعتبار، المهمُ هو هذا: ما هو مستعدٌ للعيشِ والموتِ من أجلِه. العبادةُ مُتجذرةٌ في هـذا الموقـف، بغضِّ النظر عمّا هي القيمةُ المُطلَقة. بالنسبةِ لنا نحن المؤمنين، تتمحورُ العبـادةُ حـولَ الله - الله معروفـاً، والله مُـوَقَّراً، والله محترماً ومحبوباً، والله مُطاعاً. لكنْ يجب أن نتذكّرَ أنَّ العبادة تبدأ في اللَّحظةِ الـتي ترتبطُ فيهـا القيمةُ النهائية بشيءٍ أو بشخصٍ ما. وهذا يجعلُنا أقرب، بطريقةٍ لا نـدركُها دائماً بشـكلٍ كـافٍ، إلى الأشـخاصِ الـذين يختلفـون تمامـاً عنـا، والـذين لا تتوافقُ مُثُلُهم مـع مبادئِنا، والـذين يمكنهم الـذهابُ إلى حدِّ رفضِ كلِّ مـا نُـدافع نحن عنـه، والـذين هُم، رغم ذلـك، في توجُّهٍ من العبـادةِ والتضـحيةِ بـأرواحِهم وتقـديمِ مـوتِهم من أجلِ شـيءٍ يُقدِّرونه ويثمِّنونه ويحترمونه أكثرَ من أنفسِهم. نقطةٌ أخرى يجب أن نتـذكَّرَها، هي أنـه مهمـا كـانت الطـرقُ الكلاسـيكيةُ والتقليديةُ التي نعبدُ بها عزيزةً ومهمةً بالنسبةِ لنا، فهي ليست الطُّرقَ الوحيدة، الـتي طوَّرتْها الكنيسةُ تـدريجياً، والـتي هي تعبـيرٌ عن معرفتِها بالله وقـدرتِها على التعبـيرِ عن هـذه المعرفةِ ونقلِها، كمـا والتعبـيرِ عن مشـاعرِ ومواقفِ العقلِ والروحِ التي توقظُها معرفةُ الله هذه. ولكنْ من جيلٍ إلى جيل، يمكنُ تطويرُ طرقٍ جديدةٍ بشكلٍ مشروع؛ فيها تجديدٌ لكنها على نفسِ القدرِ من الأصالةِ كغيرِها من الطُّرُق.

مجتمع دهري

نحن نعيشُ في زمانِنا الحاضرِ وسطَ مجتمعٍ دهري. نحن ضمنَه، حتى لو لم نكنْ منه. ومع ذلـك، يجب أن نكـون حريصين جداً على عدمِ رسمِ هذه الفـروقِ بشـكلٍ حـادٍ جـداً وألّا نتخيّلَ بسـذاجةٍ أننـا نعيشُ في العـالمِ دون أن نكون دنيويِّين على الإطلاق. في الواقع، ليس العالمُ من حولِنا فقط: إن العالمَ بداخلِنا إلى حدٍ كبيرٍ جداً. نحن لا ننتمي بلا تحفُّظ، بالكامل، إلى ملكوتِ الله، في وسطِ عالمٍ غريبٍ عنا. إن مُنـدَرَجات هـذا التبـاين خاطئـة. نحن في طـورِ الصَّـيرورة، لكننـا لم نصـبحْ بعـد؛ والعـالمُ من حولِنا ليسَ مجـردَ الظلمةِ الخارجيةِ الـتي يتحـدثُ عنهـا الإنجيـل. إنـه أيضـاً بيئةٌ معقـدةٌ وغنيةٌ للغاية، يكـون فيهـا الله فـاعِلاً، وغالِبـاً مـا يكـون أكـثرَ عِلمـاً وتقبُّلاً للقيَمِ الرُّوحية منَّا، إذْ تُعمينا عاداتُنا الذِّهنيةُ والطُّرقُ التي ورثناها من الماضي.

لا نستطيع (Non possumus)

ومع ذلك، لا يزال من الممكن استخدامُ خاصِّيتَين، كما أعتقد، لتحديدِ هذا المجتمعِ الدَّهري الذي نعيشُ فيه، والدهريةِ الدنيويةِ التي هي خاصِّيتُنا اليوم. الخاصِّيةُ الأولى هي فقدانُ الحسِ بالله. هذا الفقدانُ للحسِ الإلهي عندما يكون كلِّياً وجذرياً، يحددُ المجتمعَ الدهري؛ أكادُ أقولُ: المجتمعَ الدهريَّ "المثالي"، لأن المجتمعَ الدهري، كما نلاحظُه ونختبرُه، لم يفقدْ ببساطةٍ كلَّ إحساسٍ بالله - سيكون مثلُ هذا المجتمعِ غريباً تماماً عن الكنيسة. عندما نتجهُ نحوَ الداخلِ ونقيِّمُ أنفُسَنا، يمكننا أن نرى بوضوحٍ دراماتيكي - إذ بالنسبةِ لنا، هذا النوعُ من التقييمِ هو بالفعلِ بدايةُ الدينونةِ الأخيرة - أنَّنا ننتمي إلى حدٍ كبيرٍ جداً لهذا المجتمعِ الدهري، لأنَّ حِسَّنا الإلَهي ضبابي، ضعيف، فقيرٌ إلى الدم. لا يمكننا أن نقولَ أنَّ إحساسَنا بالله الحيِّ هو كالإحساسِ الذي كان لدى الرجالِ العظماءِ في العهدَين القديمِ والجديد، أو قدِّيسي الكنيسةِ أو أبطالِ الروحِ العظماء. الخاصِّيةُ الثانيةُ للمجتمعِ الدهري هي إدراكُه الحادُّ للعالمِ، الذي هو بطبيعةِ الحالِ السمةُ السائدةُ لمجتمعٍ يرفضُ أو يتجاهلُ أو يظلُّ غيرَ حساسٍ تجاه البُعدِ الآخرِ للعالم، وشفافيَّتِه تجاهَ الحضورِ الإلَهي، ومداه من الشُّسوعِ والخلود. لكنْ يجبُ ألا نتخيَّلَ أنَّه نظراً لأنَّ المجتمعَ دهري، فإنَّه يطوِّرُ وعياً للعالمِ أكثرَ عمقاً وحِدّة. إذا قرأنا سيَرَ القديسين أو إذا لجأنا إلى الكتبِ المُقدسةِ من العهدِ القديمِ أو العهدِ الجديد، فإننا نرى بوضوحٍ أنَّه ما من أحدٍ اقتنى مثلَ هذا الإدراكِ للعالم، أي لمجدِه في الله على الرَّغمِ من الخطيئة، كما لانفصالِه الجوهريِّ عن الله على الرَّغمِ من الحضورِ الإلَهي فيه، أكثرَ من القديسين، وفي النهايةِ، أكثرَ مِنَ اللهِ مُستعلَناً في المسيح. لذا فإن فقدانَ الإحساسِ بالله وهذا الإدراكَ الحادَّ للعالمِ ليسا مترابطين بالضرورة. كلُّ ما يمكن للمرءِ أن يقولَه، على ما أعتقد، هو أن هذه الخاصية أو تلك واضحةٌ في الغالبِ في المجتمعِ الذي نسمّيه المجتمعَ الدهريَّ أو العالم، بحسب التعبيرِ الكتابيِّ والكنيسة.

في الكنيسة

عندما نفكِّرُ بالكنيسة، لا كمجتمعٍ لاختبارِ أنفُسِنا، ولكن بمعنىً أوسعَ وأكثرَ واقعية: بصفَتها المجتمعَ الإنسانيَّ والإلهي في نفس الوقت وبالتساوي، ذلك المجتمع الذي يوجدُ فيه الله معنا، ذلك الجسد الذي فيه يقيمُ ملءَ اللاهوت، في المسيحِ وفي الروح، والذي يستريحُ في الله. عندما نفكّرُ بهذا المجتمعِ الذي يضمُّ اللهَ والناسَ في صيرورتِهم (الملكوتَ والجسدَ)، فإننا نرى أن الكنيسةَ معنيةٌ بكلا الجانبَين اللَّذَين تحدَّثْتُ عنهما، ولكن بشكلٍ مختلف؛ إنَّ فقدانَ الإحساسِ بالله، والوعيَ الحادَّ للعالم، هما من اهتماماتِ الكنيسة، أو ينبغي أن يكونا كذلك على قدمِ المساواة. إنَّ فقدانَ أو غيابَ الإحساسِ بالِله هو أمرٌ غريبٌ بالنسبةِ للكنيسةِ عندما نتحدثُ عنها بشكلٍ محدد، عندما نفكّرُ فيها على أنها الجسدُ الذي وصفتُه للتو. لكنَّ فقدانَ الإحساسِ باللهِ ليس غريباً عن العديدِ من أعضاءِ الكنيسة – إذْ إنَّه متأصلٌ في حقيقةِ أننا جميعاً في طورِ الصيرورة، كما أنَّه متأصلٌ في حقيقةِ أن عمليةَ صيرورَتِنا ليست صعوداً سَلساً ومُنتظماً من الأرضِ إلى السَّماء، من المخلوقيَّةِ إلى المشاركةِ في الطبيعةِ الإلهية. إنها رحلةٌ متقطعةٌ صعوداً وهبوطاً وفيها تحضرُ الخطيئة، التي هي إنكارُ الله ورفضُه، بل

وأيضاً الجهلُ به، لأننا لو عرفْنا الله بشكلٍ أفضل، لاستطعْنا أن نحبَّه بكلِّ إخلاصٍ بقدرِ طاقتِنا، بالمُصطلحاتِ البشرية، أن نحبَّه حبَّ حياتِنا، وأن نرتِّبَ حياتَنا بشكلٍ أوضحَ وفقاً لمسارِ الرحلةِ الذي وضعَه المسيحُ أمامَنا.

ما تعرفه الكنيسة عن نفسها

الكنيسةُ متجذرةٌ في الإيمانِ المولودِ من الخبرة. إنه إيمانٌ متجذرٌ في يقينٍ متعلقٍ بالأشياءِ غيرِ المرئيةِ، غيرِ الظاهرة، ولكنَّه بالنسبةِ للكنيسةِ - وأنا أتحدث الآن عن كل عضوٍ إذا كان عضواً حياً وليس ميتاً- يجب أن يكون هذا اليقينُ/الإيمانُ مركزياً. يجبُ أن ندركَ أنَّ الإيمانَ ليس مجردَ سذاجة، وأن الإيمانَ لا يَستمّدُ قوتَه من حقيقةِ أنَّنا ورثْنا رسالة. عندما يكونُ الإيمانُ حياً، عندما يكونُ له معنىً للشخصِ الذي يدَّعي امتلاكَه، يكونُ الإيمانُ متجذراً في الاكتشافِ والمعرفةِ الشخصية. يقول القديسُ مكاريوسُ المصريُّ في إحدى كتاباتِه، إنَّه عندما نلتقي الله وجهاً لوجه، فإن ذلك يحدثُ وراءَ الكلمات، بما يتجاوزُ الفِكرَ والعاطفة، في حالةِ نشوةٍ لا تسمحُ لنا بمراقبةِ أنفُسِنا ولا بأنْ نصبحَ مدركين فكرياً أو عاطفياً لما يحدثُ لنا.

لكنْ عندما تبدأُ هذه الخبرةُ بالتلاشي، فإنها تتركُ وراءَها اليقين بأنها حدثَت، وعلى الرَّغمِ من أن ما كان رؤيا قد اختفى الآن وأصبحَ غيرَ مرئي، يبقى اليقينُ معنا، وهذه هي اللحظةُ التي تصبحُ فيها الخبرةُ الغامرةُ المباشرة إيماناً. وبالطبع، فإن المثالَ الذي قدّمَه القديسُ مكاريوس له طابعٌ ملفتٌ للنظرِ بشكلٍ خاص. ما يُحدِث لنا جوانبَ ثانويةً من الأمر نفسه. هل أذكِّركُم بهذا المقطعِ في كورنثوس حيث يقولُ لنا إنَّه يمكنُنا رؤيةُ نورِ مجد الله على وجهِ المسيح؟ لكنْ يمكنني أيضاً أن أذكّركُم بالقولِ الرهبانيِّ الأرثوذكسي أنه لا يمكنُ للإنسانِ أن ينبذ كلَّ الأشياءِ ويتخلّى عنها إلا إذا رأى على وجهِ شخصٍ آخرَ روعةَ الحياةِ الأبدية – إنها خبرةٌ يتوسطُ فيها الإنسانُ ولكنها ملموسةٌ وموثوقةٌ مثل الذي وصفَه مكاريوس بأنه النشوة. هذا هو جذرُ يقينِ الكنيسة، ولهذا السببِ يمكن للكنيسةِ أن تشهدَ دون ترددٍ وبصفاءٍ تامٍ أن الأشياءَ التي لا يراها الآخرون هي أشياءٌ حقيقيةٌ وأكثرُ واقعيةً من العالمِ المرئيِّ مِن حولِنا. يتعارضُ فقدانُ الحسِّ الإلهي مع انتمائِنا إلى الكنيسة. شهادتُنا هي التالية: ليست الحيرةُ ما يجبُ أن نتحدثَ عنه، بل اليقينُ الذي نتميزُ به.

ما تعرفه الكنيسة عن العالم

لكن يجبُ أن نَعِي أيضاً العالمَ الذي نعيشُ فيه. ومع ذلك، فإن إدراكنا لهذا العالمِ ليس هو نفسُه إدراك العالمِ من منظورِ الكتابِ المقدسِ على أنه عكسُ الملكوتِ وبتضادٍ معه. نحن لا ننظرُ إلى العالمِ على أنه ماديٌّ وخاملٌ ومظلمٌ وميت. بحسبِ الكتابِ المقدسِ وخبرةِ جميعِ المؤمنين، نعلمُ أنَّه في هذا العالم، لا يملأ الله الفراغاتِ بين الأشياءِ الثقيلةِ وغيرِ الشفافةِ فحسب، بل يملأ كلَّ الأشياءِ بحضورِه. بالنسبةِ لغيرِ المؤمن، نحن محاطون بأحجامٍ ذاتِ كثافةٍ ولونٍ وتباين. بالنسبةِ للمؤمن، هذه الأحجامُ لا تحتوي فقط على كثافةٍ وتباين، بل لها عمق. قد يكون للعالمِ في أعيُنِ غيرِ المؤمنين حجمٌ وسماكة، من دون عمق، لأن كلَّ الأشياءِ التي نحاولُ اختراقَها تقودُنا إلى نقطةٍ أعمقَ وأبعدَ من ذلك إلى نقطةِ الظهور. إذا دخلْنا إلى كرة، نأتي إلى مركزِها؛ لكن هذا المركزَ هو آخرُ نقطةٍ في العمق. إذا حاولْنا الذهابَ إلى أبعدَ من ذلك، فإننا نخرجُ إلى الجانبِ الآخر. بالنسبةِ للمؤمن، إن

عمقَ العالمِ الذي يحيطُ بنا، وعمقَ البشرِ والأشياء، لا يكمنُ في هذا بلْ في تجذُّرِه في كلمةِ الله الخلّاقة، في حقيقةِ أن له مصيراً، وأنه ربما واسعٌ مثل الله نفسِه. وسيأتي يومٌ يكون فيه الله، بحسبِ وعدِ القديس بولس النبوي، الكلَّ في الكل، وهذا الكلُّ الذي يتحدثُ عنه هو العالمُ المرئيُّ الذي سيكونُ شاسعاً وعميقاً بما يكفي لاحتواء الله فيما هو موجودٌ في الله.

حتى نرى العالم، لا بالطريقةِ التي يرى فيها نفسَه مُعمىً عن عمقِه. نحن ندركُ أن لهذا العالمِ نداءً ومصيراً ورسالة، وأننا مسؤولون عن تحقيقِ هذه الدعوة. هذا المصيرُ هو للعالمِ كلِّه وليسَ للإنسانِ وحدَه، بل الإنسان هو مفتاحُ تحقيقِ هذا المصير. يقفُ الإنسانُ على عتبةِ عالمِ الله وعالمِ ما نسمِّيه الأشياء. الإنسانُ مدعوٌ ليكون المرشدَ لكلِّ الأشياء نحو تحقُّقِها. وعندما يبتعدُ الإنسانُ عن الله، يتخلّى عن الله، يفقدُ الله، بل إن الخليقةَ كلها تفقدُ مرشدَها وطريقَها.

في حديثِه عن الموقفِ الذي أحدثه سقوطُ الإنسانِ ومحاولتِه شرحَ التنافرِ المحيِّرِ للعالم، يذكرُ القديسُ ثيودوروس الستوديتي أن العالمَ يشبهُ الحصانَ الذي يركبُه فارسٌ مخمور. من أخطأ هو الفارسُ ومع ذلك يبدو أن الحصانَ متوحشٌ جداً. هكذا هو العالمُ الذي نعيشُ فيه. إنه بريء. إنه في حالةٍ مأساويةٍ من التنافر، قبيحٌ قاسٍ مدمِّر ومميت، لكنَّ العالم، مثلَ الحصان، يتأوَّه ويتألمُ وينتظرُ الوقتَ الذي ينتهي فيه السُكر، عندما يستعيدُ الإنسانُ الرصانةَ وصفاءَ العقلِ ونقاءَ القلبِ واستقامةَ الإرادة، وعندما تُستعادُ الحريةُ يُعلَنُ إنجازُ أولاد الله، ليس فقط في الإنسانِ بل في انسجامِ كلِّ الأشياء.

نحن جميعًا مسؤولون، ولكنْ، كمسيحيِّين يعرفون عقلَ الله، فإن مسؤوليتَنا أكبر. تذكَّروا التعريفَ الذي قدَّمَه عاموس للنبي، أي للذي يتكلّمُ باسمِ الله: هو الشخصُ الذي يكشفُ له اللهُ أفكارَه. لكن هذه، التي كانت دعوةَ القلائل، هي الآن دعوةُ كلِّ المسيحيين. هل يمكننا أن ننسى كلامَ المسيح: "أنا لا أدعوكم بعدُ عبيداً، لأَنَّ الْعَبْدَ لاَ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ سَيِّدُهُ. لأَنِّي أَعْلَمْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُهُ". إذا كنا أغنياءَ بالمعرفةِ التي منحَنا إياها الله، فعندئذٍ تقعُ على عاتقِنا مسؤوليةٌ أكبرُ عن كلِّ ما يحدث. وهذه المسؤوليةُ قد قبلَها الله بنفسِه. لقد تحمّلَ مسؤوليةَ فعلِ خليقتِه، كونَه خلقَ الإنسانَ ولم يبتعدْ عنه في سقوطِه بل ارتضى التضامنَ مع الإنسان.

وإلى ذلك، فإنَّ عملَ التجسدِ هذا الذي يُماهي الربَّ بمخلوقاتِه، هو فِعلُ تجسيدِ التكافلِ الذي فيه يموتُ الله، وقد اضطلعَ به عبرَ التاريخِ مَن نسمِّيهم شهداء، أي الشهودَ على محبةِ اللهِ وعلى الشعورِ بالتكافلِ الإلهي في قلوبِنا. من الخارج، يُنظرُ إلى العالمِ فقط على أنَّه مادي، ميت، خامل. داخلَ الكنيسة، يُنظر إليه على أنه شفاف ومليءٌ بالحضورِ الإلهيِّ ويتحرّكُ ديناميكياً نحو تحقيقِه - ديناميكياً ولكن ليس إلزامياً، ديناميكياً ولكن أيضاً بشكلٍ مأساويٍ في بعض الأحيان. بدون هذه الرؤيةِ للعالم، يُقاد المرءُ إلى تدنيسِ العالم؛ لا يعودُ للعالمِ أي صفةٍ مقدسة، ويصبحُ ليس دنِساً وحسب - وهو وضعٌ محايد- بل وأيضاً مُدنَّساً منزوعاً عن الملكوتِ الإلهي.

العالم مقدّس

لكنْ بالنسبةِ لنا، هذا العالمُ مقدَّس. ليس فقط مقدساً بالمعنى الذي نستخدمُ فيه الكلمةَ عندما نقولُ إنَّ حياة الإنسانِ مُقدسة، أي أنَّه لا ينبغي تدميرُها. إنه (العالم) مقدسٌ بمعنى الانتماء إلى الله، لا فقط بشكلٍ مُحتمل،

بـــل في الواقعِ الفعلي. هـــو مُلكُ الله، والله حيٌّ بداخلِـــه. باختصـــار، إذا قبلْنا الموقفَ التدنيسيَّ من العـــالم، والدهرية الراديكالية، فعلينا إذنْ أن ننكرَ تجسُّدَ كلمةِ الله، ومعجزاتِ الله، والأسرارَ المُقدَّسة، لأننا لا نؤكدُ بما لا يدعُ مجالاً للشكِّ أن اِبنَ الله قد صارَ اِبنَ الإنسانِ وحسب: ما نؤكِّدُه هو أنَّ كلمةَ الله، الله نفسَه، قد صارَ جسداً. إن ملءَ اللاهـوتِ قـد حلَّ في وسطِنا بجسدِ إنســان. إنَّ الجســدَ النــاتجَ عن التجسدِ يمثِّلُ الجــوهرَ المــرئيَّ والملموسَ لكلِّ الأشياءِ المخلوقةِ وقد أثبتَ أنه قادرٌ على أن يكونَ حاملًا لله، وممتلئاً بالحضورِ الإلهي، دونَ أن يثلَفَ أو يكفَّ عن الوجود. لو لم يكن الأمرُ كذلك، لكان التجسدُ قد دمَّرَ صفةَ الكائنِ المخلوقِ ولكان المسيحُ قد كشفَ عن اللهِ في مظهرِ إنسانٍ دون أن يكون الكلمةَ المتجسد؛ إنسان حق وإله حق.

الأسرار

وهذا ينطبق أيضاً على الأسرار. فقط إذا آمنَّا، كما يوصينا الكتابُ المقدسُ أن نؤمن - إذْ إنَّه حقيقةَ اللهِ التي أعلنَها لنا - إذا آمنَّا وعرفْنا من الخبرةِ المبدئيةِ أنَّ كلَّ الأشياءِ قادرةٌ أن تكونَ حاملةً للروحِ وحاملةً لله؛ أن أصلَها جميعاً هو في الكلمةِ المبدعِ المرتبطِ بالفعلِ بالله، وأن نهايتَها هي ذلك التحقيقِ الذي تكلَّمتُ عنه بالفعل: الله الكلُّ في الكلِّ - ما لم نؤمنْ بهذا، فلن يكون لاهوتُ الأسرارِ لدينا واقعياً. إذن، هذا الخبزُ لن يكون أبداً جسدَ المسيحِ فعلياً، لأنه لا يمكن أن يكون أبداً سوى خبزٍ غيرِ مكتمل، صالحٍ للأكل، قابلٍ للتلف، ولكنْ لا شيءَ آخر؛ لن يكـون الخمرُ أبـداً دمَ المسـيح، ولا يمكن أن يكـون سـوى خليقةٍ عـاجزةٍ عن أن تكـون مُختَرَقةً وممتلئةً بالنعمةِ الإلهيةِ والحضورِ الإلهي. ومع ذلك، هذا ما نؤمن به. وعندما نتحدثُ عن هذا الخبزِ وهذا الخمر، فإننـا لا نتحـدث عن قطعةِ خبزٍ معينةٍ أو كوبٍ معينٍ من الخمرِ يختلفُ عن الأشياءِ المخلوقةِ الأخرى. هذا يصحُّ بشكلٍ نمـوذجي لكلِّ الأشـياء، وكلُّ الأشـياء مـدعوةٌ لهـذا التحقيقِ العجـائبيِّ الـذي لا يسـبرُ غـورُه، والـذي نعرفُه في سرِّ الـدمِ والجسد، إذا جازَ لي أن أضعَه على هذا النحو، في جسدِ الله المُعلنِ في المادةِ كما ظهرَ مرةً في جسدِ ذاك الـذي وُلِدَ من العذراء. لقد خلقَ الله المخلوقاتِ بطريقةٍ بحيث لا تكفُّ عن كونِها أنفُسَها لتكونَ في الله، ولهذا السـبب، عندما نباركُ الخبزَ والخمر، يصبحان بالفعلِ جسدَ المسيحِ ودمِه. لكن مع كونِهما تامَّين بمـا فيـه الكفايـة إلا أنَّهما لا يكفَّان عن كونِهما ما هما عليه، الخبز والخمر.

المعجزات

ينطبقُ الأمرُ نفسُه على رؤيتِنا للعالمِ ولمعجـزاتِ الله. فقـط إذا كـان لاهوتُنا يعطي المـادةَ عمقاً ودعـوةً وأهمية وارتباطـاً بالله، ويعـترفُ بقـدرتِها على الامتلاءِ بالحضـورِ الإلهي، يمكنُنا أن نـؤمنَ بمعجـزاتِ العهدَين القـديم والجديد. أنا لا أتحدثُ الآن عن معجزاتِ الشفاءِ التي يمكن بسـهولة، وبسـهولةٍ بالغـة، شـرحُها من منظـورِ الفعلِ النفسيِّ الجسـدي. أتحـدثُ عن تلـك المعجـزاتِ الـتي تشـاركُ فيهـا الطبيعةُ دون مشـاركةِ الإنسـان، مثـل عاصـفةِ بحيرةِ الجليل. إذا توقفْنا عن رؤيةِ العالمِ من خلالِ الإيمانِ والخبرة، نكون قـد قبلْنا أن نكـونَ دنيـويِّين وعميانـاً ودهريِّين، أي أن ندنِّسَ ما جعلَه الله مُقدساً. وهذه مشكلةٌ جادةٌ للغاية، لأنه يوجدُ داخلَ المجتمعاتِ المسـيحية أو غيرِها من المجتمعات المؤمنةِ أزمةُ إيمان، لأنها أزمةُ خبرة، وأزمةُ الإيمانِ هذه تجعلُنا دنيـويِّين، وتحرمُنا من

تلك المشاركةِ طوالَ حياتِنا في الاختبارِ الأوّلي الأصيلِ لله والإنسانِ وعالمِ المادة. هذا مهم، لأننا إذا فقدْنا خاصيَّتَنا، فسيفقدُ العالمُ هذه الخاصية. إذا فقدَ الملحُ مذاقَه، فهو لا يصلحُ إلا أن يُداسَ بالأقدام. وهذه هي المكافأةُ العادلةُ لخيانتِنا لما كشفَه الله وما يكشِف لنا من خلالنا.

معاداة الكهنوتية والكهنوت

أعتقدُ أنَّ هناك أمراً آخرَ يجبُ أخذُه بعينِ الاعتبارِ، في الكنيسةِ كما في المجتمعِ المدني.إنه موقفٌ مناهضٌ لرجالِ الدين، وهو ينمو وينتشر. ليسَ من المُستغرب أن يكونَ العالمُ من حولِنا مناهِضاً للإكليروس، لكنَّ هناك تزايداً في مناهضةِ رجالِ الدينِ داخلَ الكنائس. إذا كانت هذه المناهضةُ تتوافقُ مع الالتباسِ الذي أراه، على الأقل في كثيرٍ من الأوساطِ الآن، أي الخلط بين الإكليروس والمقدَّس، فهي شرٌّ. ولكنَّ هناك معنىً آخرَ يكون فيه للموقفِ المناهضِ لرجالِ الدين، في اعتقادي، أهميةٌ وقيمةٌ عظيمتان. لن أقولَ شيئاً عن ماهيةِ الكاهن، لكنّي أودُ في هذا الصددِ أن أقولَ كلمةً حول ما ليس عليه الكاهن، أو بالأحرى، أنْ أضعَ الكاهنَ في السياقِ الذي ينتمي إليه.

تابعتُ قبلَ بضعِ سنواتٍ مادةً في الدراساتِ العُليا لطائفةٍ مُعينة، حولَ أهميةِ الكاهن، قدَّمها عالمُ لاهوت مشهور. وقد شدَّدَ على حقيقةِ أنَّ الكاهنَ يتمتعُ بقوةٍ لا تُصدَّق. قالَ إنَّ المسيحَ قد أعطى له سلطةَ تكريس جسدِه ودمِه، وتوزيعِ المناولة، وإعطاء الغفرانِ أو رفضِه، أي الحلِّ والربط. وقالَ كلماتٍ أجدُها مُخيفة: "بالمعنى الدَّقيقِ للكلمة، الكاهنُ أقوى من المسيح ، إذ الآن بعد أنْ صعدَ المسيحُ إلى السماء، فإنَّ للكاهنِ القدرة على أن يرفضَ للناسِ ما كان يمكن أن يمنحَه المسيح؛ يكفي الكاهنَ أن يديرَ مفتاحَ علبةِ الذخائرِ عن المرضى والمُحتضرين فيُحرموا من المناولة". حسناً، هذا هو ما **ليس** الكاهن. هذه في الواقع رؤيةٌ تجديف. يجب أن نتذكرَ أنَّه لا يوجدُ سوى كاهنٍ واحد، رئيسِ كهنةِ الكنيسة، وهو الرَّبُ يسوعُ المسيح. لا يوجدُ كاهنٌ آخرُ بالمعنى الكاملِ للكلمة. عندما نحتفلُ بالأسرارِ الإلهية، فإنَّ المسيحَ هو الذي يعمل. لقد ذكَّرتُ الناسَ أكثرَ من مرةٍ بالكلماتِ التي في بدايةِ القداسِ في الكنيسةِ الأرثوذكسية، أنه عندما يكون كلُّ شيءٍ جاهزاً، يجتمع المُصلُّون، ويتمُ تحضيرُ الخبزِ والخمر، عندها لا يتبقى شيءٌ إلا مباشرةُ القداسِ الإلهي، يلتفتُ الشماسُ إلى الكاهنِ ويقول: "هوذا وقتٌ يُعملُ فيه لله". كم هذا غريب! أليست هذه هي اللحظةَ التي سيبدؤون فيها بفعلِ الأشياء؟ لا. سيباشرون التَّصريحَ بالكلماتِ التي ليستْ كلماتِهم ويقومون بحركاتٍ ليستْ حركاتِهم. إنها كلماتُ المسيح. الحركاتُ هي للرَّب. لكن ما يتوقَّعونه نتيجةً لهذه الحركاتِ لا يُمكن لأيِّ حركةٍ أن تنجزَه. ما يأملونه كنتيجةٍ لهذه الكلماتِ لا يمكن لأي كلمةٍ أن تحقِّقَه، ولا أي كلمة، ما لم نقبلْ لاهوتاً للسِّحر. إنها قوةُ الروحِ القدسِ القادرةُ على إحداثِ التغييرِ وإتمامِ الصلاةِ والاستجابةِ لها. إذن، للكاهنِ مكانتُه وأهميتُه، ولكن عندما يتعلقُ الأمرُ بالأمورِ الأساسيةِ في أحداثِ الكنيسةِ الكبرى، فما من أحدٍ هو رئيسُ الكهنةِ إلا المسيح، وما من قوةٍ تعملُ إلا قوةُ الروحِ القدسِ في حريتِه ومحبتِه. لو تمَّ تعليمُنا في كثيرٍ من الأحيان في المدارسِ اللاهوتيةِ التي ننتمي إليها، لكانَ من المحتملِ أن يفيدَ ذلك الناس العاديين كما الكهنة. هذا لا ينقِص شيئاً من أهميةِ الكاهن، لكنَّه يمنحُ الله المكانَ الذي له، ويجعلُ ما لا يمكنُ تصديقُه ممكناً بخلافِ ذلك. لا كلمة، لا حركة، ولا أحدَ

يستطيعُ أن يجعلَ الأشياءَ على الأرضِ أشياءَ إلَهية. لا يمكنُ لأيِّ قوةٍ بشريةٍ أو طرقٍ بشريةٍ أن تجبرَ الله على فعلِ ما هو شكلٌ من أشكالِ التجسُّد.

القوة والحركة

لقد قلتُ من قبلُ أن الكنيسةَ هي مجتمعٌ غريبٌ للغايةِ من نَواحٍ كثيرة. للتلخيص، أودُّ التأكيدَ أن الكنيسةَ قد تكون المجتمعَ الوحيدَ الذي لم يولَد فيه الإنسان. يصبحُ الإنسانُ عضواً فيها طالما هو على قيدِ الحياةِ وطالما يتمسّك بقيَمِها. وإلا يصبحُ الإنسانُ حضوراً شَبحياً في الكنيسة، وميتاً، ومنفصلاً عنها، حتى لو تمَّمَ ظاهرياً جميعَ طقوسِها وحركاتِها. لا يمكن للمرء أن ينتميَ إليها ميكانيكياً، ولا يمكنُ للمرء أن يبقى فيها ميكانيكياً. إنه موقفٌ ديناميكي، مجتمعٌ إنسانيٌّ وإلهيٌّ في نفسِ الوقت، تظهرُ فيه البشريةُ في إنسانيةِ المسيح، وتتطعمُ إنسانيتُنا بما نحن مدعوون لاقتنائِه، مجتمعٌ يكون اللهُ في قلبِه. "عمانوئيل": الله معنا. وبهذا الاتجاه، فإن الكنيسةَ بالمعنى الحقيقي، الدقيقِ والرصينِ للكلمة، هي نهايةُ الدينِ كما فهمَه العالمُ الوثنيُّ كنظامٍ للطقوس والصلاةِ والتعاويذِ والوصفاتِ والأفعالِ التي يمكن أنْ تقرِّبَ الله، التي يمكن أن تجبرَ الله، أو على الأقل، تقنعَه بالاقتراب. نحن لا نحتاجُ إلى أي شيءٍ من هذا القبيل. الله في وسطِنا. لسنا بحاجةٍ إلى إجباره على المجيء، حتى لو استطعْنا. لا يوجدُ طقسٌ ولا طريقٌ ولا حركةٌ يمكن أن تضيفَ أو تنقِصَ أيَّ شيء. قال المسيح: "طوبى لأنقياءِ القلبِ لأنهم لله يعاينون".

الحرية

الكنيسةُ مكانُ الحضورِ والسُّكنى. لكنَّ التجسد، عطيةَ الروحِ القدسِ والسرَّ الكاملَ المُعقدَ للكنيسة، وإنْ يكنْ هو هدف الدين مفهوماً بهذه الطريقة القديمة، لكنه ليس هدفَ الإكرامِ ولا هدفَ العِبادة. ينبعُ الإكرامُ من وعيِنا لله. العبادةُ هي المكانةُ التي نعطيها للربِ في حياتِنا. ولكن هذا يعني أيضاً أنه يمكن أن يكون هناك تنوعٌ معقد لانهائي، ليس فقط في الطُرُقِ التي نعبّرُ بها عن علاقتِنا مع الله، بل أيضاً تنوعٌ لا نهائيٌ في الطرائقِ التي يرتبط بها كل واحدٍ منا بالله. في الوقتِ الحاضر، يبدو لي أنه ليس العالمُ فقط، بل أيضاً الكنيسة، شعبُ الله، قد سئم من الكلماتِ والحركاتِ التي تتجاوزُ التعبيرَ الرصينَ الضروريَ عن المواقفِ الواقعية. لقد كان أحبَّ عليَّ أن أتحدثَ فوقَ طاقتي عن الطرقِ التي يجبُ أن يتبناها الإنسانُ في التفكيرِ بالإصلاح، أو بالأحرى بالخلقِ من عمقِ خبرةِ الكنيسة، ليس في العبادةِ الخاصّةِ والشخصيةِ وحسب، بل أيضاً في العبادةِ الليتورجية. اسمحوا لي فقط أن أقول بعض الأشياء.

ليتورجيا الصمت والسرّ

بدايةً، إذا كان الله في وسطِنا بالفعل، وإذا كنّا معه مجتمعاً واحداً سرياً وجسداً سرياً بشكلٍ مدهش، فبقدرِ ما يتعلقُ الأمرُ بالكنيسة، يمكننا أن نقيمَ في الصمتِ في هذا الإدراك، عابدين في الحقِ وفي الروح. ثانياً، الكنيسة لا تضمُّ فقط أولئك القادرين على هذا النوعِ من العبادة، وبالتأكيد، ليست فقط أولئك القادرين على تلقّي رسالة

الصمتِ والفهمِ في الصمتِ ما على الصمتِ قولُه. يمكن للكنيسةِ أن تطوّرَ نوعَين على الأقل، وربما ثلاثةَ أنواعٍ من الليتورجيا: (النوع الأول) ليتورجيا للواعين القادرين على المشاركةِ في ليتورجيا يكون الصمتُ فيها هو السمةَ الغالبة، وتكون الحركاتُ والكلماتُ رموزاً تشيرُ بعيداً عن ذاتِها إلى قلبِ الصمتِ الذي يعيشُ الله فيه ويعملُ فيه. لقد أجريَت تجاربَ أعتقدُ أنها غنيةٌ ومجزية. (النوع الثاني) ليتورجيات هامشية هي مجردُ طريقةٍ للوجودِ وتلقي التأثيرِ الإلهي وحسب. (النوع الثالث) ليتورجيات تهدفُ أيضاً إلى إبلاغِ مَن يجدون الصمتَ عميقاً جداً وغيرَ مفهوم، بالحركاتِ والكلمات، ما يحتويه الصمتُ بشكلٍ أكثرَ كمالاً مما يمكن أن تنقلَه أي كلمةٍ أو حركة.

ولكن في قلبِ كل عبادة، يجب أن يكون هناك وعيٌ بأن كلّ ما يحدثُ هو فعلٌ إلهيٌ لا يمكن التعبيرُ عنه بشكل مناسب، لأنه لا يمكن أن يكون ولا ينبغي تأطيرُه بجمالٍ ليتورجي مُعتِم، بل يجب أن يؤطّرَ بطريقةٍ شفافة، رصينة، بلورية، بحيث لا يمكن لأي جمالٍ أن يطمسَ الرؤيةَ والإحساسَ بالحضورِ الإلهي. من الواضح تماماً في هذا الحديث أنني لا أستطيعُ أن أقدمَ لكم أي نوعٍ من الوصفِ له. لكنْ ما لم تَصِل، في كل مجتمعاتِنا المختلفة، إلى النقطةِ التي يصبحُ فيها الله هو الذي يقيمُ الأسرار، فلن نلتقيَ أبداً في أي مكان.

إذا استطعنا أن نجعلَ الله الكاهنَ والروحَ القدسَ القوةَ التي تعمل، وأن نُسكِتَ الشكلَ الذي به نتلقّى، والذي فيه نكتشفُ الحضورَ الإلهيَّ والمواهبَ الإلهيةَ ونعيشُها، إذا كان بإمكاننا القيامُ بذلك في أي لحظة، سنكون قادرين على الالتقاء، لأننا عند هذا العمقِ وفي هذه الحالةِ نكون بالكادِ ناضجين للقاء. إذا طوَّرْنا ليتورجيات أخرى ننقلُ فيها من الداخلِ وليس من العالمِ الخارجيِّ المعانيَ التي يحملُها الصمت، سنكون قادرين على جعل أشياءَ كثيرةٍ مفهومةً لبعضنا البعض بطريقةٍ مقبولةٍ للجميع، أو على الأقل للكثيرين. يجب أن يصبحَ الله مركزياً بشكلٍ مطلق إذا أردْنا أن تكون عبادتُنا الليتورجيةُ المكانَ الذي يمكننا أن نلتقي فيه، ليس بالمعنى المسكونيِّ كمسيحيين مُنقسمين مُمتلئين بحسنِ النيةِ مستعدين للمساومةِ على خبراتِهم وولاءاتِهم الخاصةِ أو التخلي عنها أو نسيانِها، ولكن بطريقةٍ جديدة: طريقةِ الأشخاصِ المرتبطين بالله والذين يجدون بعضهم البعضَ ضمن هذا الارتباط. عندها ستكون عبادتُنا تحدياً وافتراءً. عندها ستصبحُ غير متوافقةٍ مع ما هو شرير وملحدٌ وأعمى ومعتِمٌ في النهجِ الدهري. مِنَ المُحْتَمَل بعد ذلك أن يصبحَ التناقضُ أكثر حدةً وأكثرَ دراماتيكية من التناقضِ بين أبّهةِ الكنيسةِ وأشكالِ العبادةِ الدهرية. عندئذٍ تستعيدُ الكنيسةُ بُعدَها وإيقاعَها، وفي قلبِ الأشياءِ عند تلك النقطة، أؤمنُ أن الكنيسةَ ستصبحُ ما كانت عليه في الأصل، لا مجتمعاً صغيراً داخلَ المجتمع الأوسع، بل مجتمعاً إلهياً وبشرياً في نفسِ الوقت، وبالتالي، أوسعَ وأعمقَ وأعظمَ من العالمِ نفسه؛ ليس فقط في الله، بل فينا أيضاً، أكبرَ وأوسعَ من العالمِ كله، مؤهّلةً لاحتواءِ العالمِ وقادرةً على إشباعِه.

Source: Metropolitan Anthony Sourozh (1970). Worship in a Secular Society. Studia Liturgica.Vol 7, Issue 2-3, 1970. pp. 120-130.